القصص

من القصص العربي

حديث سمر

للأديب محمد فهمي عبد اللطيف

على بساط من رمل الصحراء الأحمر، وفي ثنية من ثنايا الجبل السامق نحو السماء، وفي جو رخاء يتموج في جوانبه نسيم العشية البليل، أخذ القوم مجلسهم كالعادة يسمرون ويتفكهون! انهم فتية شبوا في ظلال الخفض والرفاهية، لم يثقلهم من الدهر هم، ولم يشغلهم من الحياة شاغل، فكلهم في بيته سليل المجد، وربيب النعمة وأخو الفراغ والجدة. وكانوا من العمر في طور الشباب تغمرهم الأمانى الواسعة وتستخفهم الأحلام اللذيذة، فالدنيا ما زالت في نظرهم حلوة خضرة، تتراءى لهم كالعروس قد جلتها يد الماشطة الصناع، فكلها اغراء وكلها فتنة، فتمردوا على العشيرة. وخرجوا على المجتمع، وجمعوا شملهم بالصداقة، وأقاموا الاخاء فيهم مقام القرابة، وشردوا عن أهلهم إلى البيداء، حيث مجال الحرية الواسع ومراد النظر السادر، وميدان الركض الفسيح!

وكان من عادة القوم أن يسمروا في بيدائهم، وكانوا يجرون في سمرهم على نظام متبع، وحياة رتيبة، فهم في كل أمسية حول واحد منهم يسرى عنهم بالنادرة البارعة، ويفكههم بالملحة الشاردة، وكثيرا ما ينثنى بهم نحو الماضى المنصرم، فيقص عليهم من ذكرياته الحلوة الطيبة، ومصادفاته الغريبة

وها هم أولاء قد أخذوا مجلسهم على عادتهم في نظام واحد وأنصتوا. انتصب ذاكر منهم كان عليه حق الجماعة، ومن واجبه «حديث السمر» في تلك الليلة فقال: لقد انحدرت مع قومى فيما سلف من الزمن إلى بغداد، فاكترينا داراً شارعة على أحد الطرق المعمورة بالناس، وكنا في عيشنا نجرى على طبيعة الدهر من الرخاء والبؤس، فرة يغمرنا اليسر والرغد وطوراً يشملنا العسر والفاقة! الله تلك النفوس الطيبة يا إخوان؛ لقد كنا لا نكر أن تقع مؤنتنا على واحد منا اذا أمكنه؛ ولقد يبقى الواحد فينا لا يقدر على شيء فيقوم به أصحابه الدهر الأطول، وكنا اذا أيسرنا أكلنا من الطعام ألينه، وانحدرنا إلى أسفل الدار، نتنهب اللهو، ونهتاج العواطف بالطرب، فاذا ما عدمنا ذلك انصرفنا إلى غرفة نتمتع منها بالنظر إلى الناس، ولكن لا أعرف أن النبيذ خلا من أيدينا على أية حال.

فانا لفي يوم من الأيام، صادفنا فيه افتقار القوت، وسعدنا منه بوفرة النبيذ، واذا بفتى يطرق علينا الباب طرقاً، فلما صعد إلينا بعد الأذن، ألفيناه حلو الوجه، سرى الهيئة، ينبيء رواؤه عن الخير، ويدل مظهره على النعمة، ابتدأنا بالتحية واستمر يقول: لقد سمعت بمجتمعكم، وحسن منادمتكم وصحة ألفتكم، وعلمت كأنما أدرجتم في قالب واحد، فاحببت أن أكون واحداً منكم فلا تحتشمونى، وخذونى باوضاع الأخوة لا بواجب الضيافة. فكنا في أنس بلقياه، ونشوة من حديثه، ولكنا كنا أيضاً في هم وفكر من تدبير القوت له والحصول على الزاد الواجب لغدائه.

ولم يمض كثير حتى أشار الفتى إلى غلامه فوضع بين أيدينا سلة خيزران فيها طعام المطبخ من جدى ودجاج وفراخ ورقاق وأشنان ومخلب وخلة، وأجبنا صاحبنا إلى ما طلب من حق الأخوة فلم نحتشم طعامه فخططنا فيه، ثم أفضنا في الشراب، وأفضنا في الحديث، وانبسط الفتى معنا في الكلام، فاذا به أحلى خلق الله إذا حدث، وأحسنهم استماعاً إذا حدث، وأمسكهم عن ملامة إذا خولف. ثم أفضينا منه - على طول المقام - إلى أكرم محالفة، وأجمل مساعدة، وكنا ربما امتحناه بأن ندعوه إلى الشيء يكرهه فيظهر لنا أنه لا يحب غيره، نطالع ذلك في إشراق وجهه، وانبساط أساريره، فصرنا نغنى به عن حسن الغناء، وشغلنا بأخباره وآدابه، وشغفتنا نوادره وأماليحه، ومع ذلك فما وقفنا على اسمه،

ولاحققنا نسبه ، وإنما عرفناه بابى الفضل ، وكنا ندعوه بذلك

وجلس فى يوم يطرفنا بنوادره ويقص علينا شيئاً من تاريخه فقال : ألا أخبركم بم عرفتكم ، ولماذا آثرت صحبتكم ؟ قلنا : إنا لنحب ذلك ونطمع فيه ، قال : لقد أحببت جارية فى جواركم ، فشغفت نفسى حبا ، وتدله قلبى فى هواها فكنت أجلس فى الطريق ألتمس اجتيازها فاراها ! ودمت على ذلك حتى أخلقنى الجلوس على الطريق ، وأنكرت من نظرات السابلة ، ورأيت غرفتكم هذه ، ووقفت على خبركم فى العيش وأخذكم بالائتلاف والمساعدة ، فكان الدخول فيما أنتم فيه أسر عندى من تلك الجارية !

فقلنا : هون على نفسك يا ابن العم ، وتمن فى تحقيق مأربك ، وسنجد فى اختداع الفتاة حتى تصير اليك ! فقال : حسبكم يا إخوان : إنى والله على ما ترون منى من شدة الشغف والكلف بها ما قدرت فيها حراماً قط ، ولا تقديرى إلا مطاولتها ومصابرتها إلى أن يمن الله بثروة فأشتريها ، وبغير هذا لا يكون الوصول اليها منى على بال .

وأمضى الرجل فى أخوتنا شهرين ، فكنا فى اغتباط بقربه ، وأنس من صحبته ، ثم خالسنا الفراق على غفلة فنالنا بذلك ثكل بمض ، ولوعة مؤلمة ، وما كنا نعرف له منزلا فنلتمسه ، ولا باباً فنطرقه . فوالله لقد كدر علينا بعده ، بقدر ما طاب لنا بقربه ، وجعلنا لا نرى سروراً ولا غناء إلا ذكرناه لأفضال السرور بصحبته وحضوره ، والغم بمفارقته وغيابه ، فكنا فيه كما قال الشاعر :

يذكرنيهم كل خير رأيته وشر ، فما أنفك منهم على ذكر

وتصرمت على غيابه عشرون يوماً وكأنها الدهر ، وما لنا مطمع فى لقياه ثانية ، فان فترات الصفو محدودة ، والحياة ضنينة فى إرجاع ماكان ، فبينا نحن نجتاز الرصافة يوماً إذا به يطالعنا فى موكب نبيل ، وزى جميل ، وما أبصر بنا حتى انحط عن راحلته وانحط غلمانه ، وإنى ما زلت ألمحه فى أعطاف الماضى وهو مقبل نحونا فى لهفة يقول : والله يا إخوانى ماهنا لى بعدكم عيش ، ولا طاب لى أنس ، ولا عرفت فى نفسى معنى الصفو ، ولست أماطلكم بخبرى فانى أتبين فيكم اللهفة إلى ذلك فميلوا بنا إلى المنزل وهو قريب ، فملنا معه عن رغبة ، ولما تم بنا المجلس قال : لقد آن لى أن أكشف لكم عن نفسى ! أنا العباس ابن الأحنف وطبعاً سقط لكم شىء من أمرى ، وكان من خبرى بعدكم أنى تركتكم أطلب منزلى لحاجة ، فاذا بالشرطة فى طلبى ، وفى كثير من السرعة مضوا بى إلى دار الخلافة ودار الملك ، فصرت إلى يحيى بن خالد فقال لى : ويحك يا عباس ؛ إنما اخترتك من ظرفاء الشعراء لقرب ماخذك ، وحسن تاتيك ؛ وإن الذى ندبتك فى شأنه لجليل ، فانت أعرف بخطرات الخلفاء ، وإنى أخبرك أن « ماردة » هى الغالبة على أمير المؤمنين اليوم ، وقد جرى بينهما عتب ، فهى بدل المعشوق تأبى أن تعتذر ، وهو بعز الخلافة وشرف الملك يتعالى على ذلك . فقل شعراً يسهل عليه سبيل الوصل ، ويقرب له شقة المعاودة . ثم اطرحنى إلى غرفة خالية ، وقدم القرطاس والدواة ، وقال هيا يا عباس ! !

ولا أكتمكم يا إخوان ، لقد شرد منى الذهن ، وتبلد الفكر ، فتعذرت على كل عروض ، ونفرت عنى كل قافية ، والرسل فى كل فترة تعتبنى ، والأمير يستحثنى ، فما زلت أحاول وأداول حتى انفتح لى شىء فجئت باربعة أبيات رضيتها إذ وقعت صحيحة المعنى ، سهلة اللفظ ، ملائمة لما طلب منى ، وأخبرت عنها الوزير فقال فى لهجة المستعجل : هاتها فنى أقل منها مقنع . وفى ذهاب الرسول ورجوعه قلت بيتين من غير الروى ، ثم كتبت الأبيات الأربعة فى صدر الرقعة وعقبت بالبيتين فقلت :

العاشقان كلاهما متغضب وكلاهما متوجد متعتب
صدت مغاضبة وصدّ مغاضباً وكلاهما مما يعالج متعب
راجع أحبتك الذين هجرتهم إن المتيم قلما يتجنب
إن التجنب إن تطاول منكما دبّ السلو له وعزّ المطلب

ثم كتبت تحت ذلك :

لابد للعاشق من وقفة تكون بين الهجر والصرم
حتى إذا الهجر تمادى به راجع من يهوى على رغم

فدفع يحيى بالرقعة إلى من حملها إلى الرشيد ، فلما وقف عليها قال : والله مارأيت شعراً أشبه بما نحن فيه من هذا ، والله لكأنى قصدت به قصداً ، ثم أخذ يعاود قراءتها وهو يقول : نعم ! نعم ! راجع من يهوى على رغم ، أى والله أراجع على رغمى ، لقد تمادى الهجر فلا بد أن أراجع ، هات ياغلام النعل ، ونهض فوصل ما انقطع

« البقية فى ذيل الصفحة التالية »